معوقات تنمية الإبل في العالم العربي

أ.د. تاج السر بن أحمد محمد

ينفرد العالم العربي عن مناطق العالم الأخرى بثروة ضخمة من الإبل كما ونوعا، إذ يقارب تعدادها ١٢ مليون رأس تمثل حوالي ٧٥٪ من جملة تعداد الإبل في العالم، وتتوزع على ما يقارب ٤٥ جنسا (Breeds). وتعد الإبل من الأنعام (البقر والغنم والماعز) التي أنعم الله بها على الإنسان العربي للإستفادة منها واستغلالها في مأكله ومشربه وفي مآرب حياتية أخرى. وقد تحدثت كثير من الأدبيات عن دورها في حياة وحضارة العرب، وعن الإمكانيات الإنتاجية (Production Aptitudes) الكامنة فيها، وميزاتها النسبية كمنتج لسلع غذائية وغير غذائية. كذلك تعد الأرض العربية من المحيط إلى الخليج هي الموطن الأصلي (Homeland) للإبل، حيث عاشت فيه منذ آلاف السنين، وتأقلمت مع عناصر بيئته القاسية كالجفاف وارتفاع درجات الحرارة وشح المياه وندرة وموسمية الموارد العلفية.

تمتاز الإبل على رصيفاتها من أنواع الأنعام الأخرى بتفوقها في متوسط إنتاجها من الحليب واللحوم الحمراء، حيث تنتج في فترة الحليب الواحدة أكثر من ثلاثة أضعاف إنتاج البقر، وخمسة عشر ضعف إنتاج الماعز في ظل نظم التربية التقليدية السائدة في العالم العربي، جدول (١). غير أن الإحصاءات الموضحة في جدول (٢) تظهر أن مستوى استغلال هذه الإمكانيات والميزات النسبية لمصلحة الإنسان العربي منخفض للغاية مقارنة بأعدادها وحجم كتلتها الحيوية منسوبة إلى أنواع الأنعام الأخرى. فبالرغم من أن الكتلة الحيوية للإبل تقارب ١٧٪ من جملة الكتلة الحيوية للأنعام، إلا أن إسهامها في إنتاج اللحوم الحمراء والألبان لم تزد عن ٤,٦٪ من جملة الإنتاج في العالم العربي.

نوع الأنعام	إنتاجية الألبان(١) (كجم/سنة)	إنتاج اللحوم (٢) (متوسط وزن)
أبقار	٥٠٠	١٤٦
ماعز	٨٨	١٤
أغنام	٥٤	٢٠
إبل	١٦٠٠	٢١٩

(١) وزارة الزراعة والمياه ـ المملكة العربية السعودية ـ إدارة الثروة الحيوانية ١٤٠٢هـ.
(٢) المنظمة العربية للتنمية الزراعية الخرطوم ١٩٧٩م.

● **جدول (١): الإمكانيات الإنتاجية لأنواع الأنعام المختلفة من الألبان واللحوم تحت ظروف التربية التقليدية في العالم العربي.**

نوع الأنعام	الكتلة الحيوية (٪)	مستوى المساهمة (٪ من جملة إنتاج)	
		الألبان	اللحوم الحمراء
الأبقار	٤٨,٨	٧٠	٥٧
الأغنام والماعز	٣٤,٣	٢٦	٣٧
الإبل	١٦,٩	٠٤	٠٦

١- محمد السيد عبدالسلام ١٩٩٨م
٢- FAO Year book 1988

● **جدول (٢) : النسبة المئوية للكتلة الحيوية ونسبة مساهمة الأنعام المختلفة من جملة إنتاج اللحوم الحمراء والألبان في العالم العربي.**

اتسمت المحاولات والتجارب الوطنية والأجنبية لتطوير وتنمية الإبل في كثير من البلاد العربية وغير العربية بضعف المردود ومحدودية الأثر، ولم يحالفها التوفيق في التغيير الإيجابي الذي كانت تصبو إليه، ويرجع ذلك إلى أن تلك المحاولات والتجارب كانت في معظمها بدوافع سياسية أو إجراءات إسعافية مستعجلة تأتي كل مرة بعد حدوث كوارث طبيعية ـ كالجفاف والتصحر في دول الإيقاد ـ ولم تستوعب بما يكفي المعضلات والمعوقات التي يمكن أن تعترض سبيل تطوير وتنمية الإبل تنمية مستدامة.

تعني التنمية المستدامة للإبل ـ الواردة في سياق هذا الموضوع ـ العمليات أو البرامج أو المشروعات التي تهدف إلى تحسين واقع مربي الإبل وزيادة مساهمتها في توفير الغذاء للإنسان العربي وإدخالها فيما يعرف باقتصاد السوق لتحقيق مشاركتها في الدخل القومي العربي بقدر أكبر وبصورة دائمة.

يتناول هذا المقال استكشاف بعض المعضلات والمعوقات التي تعترض تنمية الإبل بهدف الحث على تجاوزها أو التقليل من حدتها أو تقييمها بما تستحق عند رسم

الاستراتيجيات وتخطيط وتنفيذ برامج ومشاريع تنميتها. وتشكل هذه المعقومات حلقة مترابطة يصعب تجزئتها وتبويبها، كما تتباين في درجات تأثيرها على عمليات التنمية، وبالرغم من ذلك يمكن استعراضها وفق ما يلي:-

المعوقات البيئية

تعيش أكثر من ٩٠٪ من الإبل في العالم العربي في مواقع جغرافية نائية بعيداً عن مراكز الحضر والخدمات العامة والأسواق، في بيئة بدوية صحراوية جافة تتسم بشح الموارد الطبيعية وانعدام البنيات الأساسية، فتحول دون ممارسة أي نشاطات بشرية أخرى بخلاف رعي الإبل والمجترات الصغيرة، كما تحد من نوعية الخيارات التنموية، حيث تربى الإبل ضمن هذا الإطار البيئي في نظام رعوي تقليدي متنقل ينتشر على رقعة أرضية واسعة - جدول (٣) - تنعدم في معظمها الطرق المعبدة ووسائل الاتصال. ومن المعلوم أن في مثل هذا النظام تتعثر الجهود التنموية وتتبعثر، ويصعب تنفيذ برامجها ومتابعتها، وترتفع كلفتها المالية، ولا تتجاوز نتائجها وآثارها بعيدا عن مراكز تواجدها بكثرة. ويؤدي هذا إلى فتور حماس الجهات الممولة والكوادر العاملة، بالإضافة إلى أن هذا الإطار يعوق تسويق منتجات الإبل الزائدة عن حاجة الأسرة البدوية، خصوصا المنتجات سريعة التلف كالحليب ومشتقاته.

البلد العربي	الكثافة (عدد الإبل/كم٢)	الإبل (٪ من الكتلة الحيوية)
الصومال	٨,٦	٥٣,٨
السودان	١,٢	١٧,٦
باكستان	١,٥	٣,٣
تونس	١,٣	١٥,٣
السعودية	٠,٧	١٨,٦
موريتانيا	٠,٧	١٥,٣
الإمارات العربية	٠,٥	٥٧,٧
مصر	,٠٨	٠,٦
الجزائر	,٠٦	٥,٩

المصدر:- المنظمة العربية للتنمية الزراعية - الخرطوم ١٩٧٩م.

● جدول (٣) كثافة ونسبة الإبل (٪) من الكتلة الحيوية للمجترات المزرعية في بعض البلدان العربية.

● نقل الإبل إلى بيئات ملائمة تعد إحدى الجهود التنموية للإبل .

أبرز تجاوز وضخامة واستعصاء هذا النوع من المعوقات في منتصف القرن الماضي تياراً تنمويا يدعو إلى تهجير رعاة الإبل من بيئاتهم الأصلية إلى بيئات أخرى أغنى مواردا، وذات ميزات نسبية تحفز وتشجع على تنمية الإبل. وقد شجعت موجات الجفاف المتتالية التي ضربت معاقل الإبل في النصف الثاني من القرن الماضي الحكومات والمنظمات الدولية وصناديق التنمية وبعض رعاة الإبل أنفسهم على تبني هذه الدعوة التي تنزلت على الواقع فيما عرف ببرامج التنمية الريفية واستقرار الرحل. فمثلا في السودان والصومال ودول الخليج استقر بعض البدو وانخرطوا في أعمال هامشية بعد أن انفصلوا مكانيا عن حيازاتهم التي لم تجد سعة ولارحبا في البيئات الجديدة المصطنعة. وقد كان لهذا الإنفصال بين البدو وحيازاتهم أثر سلبي على مستوى تربية ورعاية الإبل والأمن الغذائي للأسر البدوية المستقرة، إذا أصبحوا مستهلكين للألبان الجافة المستوردة بديلا عن حليب إبلهم.

تعد نتائج برامج التنمية الريفية واستقرار البدو غير مشجعة في بعض البلدان العربية، وأفرزت صراعات مريرة بين حائزي الإبل المهجرين ومستخدمي الأرض الأخرين مثل مزارعي المحاصيل والبساتين والصمغ العربي ورعاة الأبقار، كما أثارت جدلاً واسعا حول صلاحية وجدوى تربية الإبل في بيئات تتعدد فيها نظم استخدام الأرض (Multiculture) أو في نظم إنتاج حديثة مكثفة أو مختلطة.

المعوقات الإجتماعية والإقتصادية

تعد الإبل مالا وثروة تقترن بها مظاهر الجاه والوجاهة الاجتماعية، إذ يعد عدد الإبل في حيازة البدوي مقياساً لدرجته في السلم الاجتماعي، كما وأن هذه المجتمعات تنظر للإبل كمستودع وماعون توفير أكثر مما تنظر إليها كوسيلة لإنتاج سلع غذائية تعود بالنفع الآني لصاحبها والمجتمع. فهم لايبيعون الإبل إلا عند الضرورة القصوى، ويعتمدون في حصولهم على النقد على عائدات بيع المجترات الصغيرة، ويشترون بما فاض عن حاجتهم من هذه العائدات إبلا لزيادة حيازتهم، حيث يعتقدون أن الإبل تمثل درعا منيعا ضد التضخم النقدي الذي استفحل بضراوة في كثير من البلاد العربية. وتتجلى الرغبة في تملك الإبل بصورة لاغموض فيها في جدول (٤)، الذي يوضح أن النسبة المئوية للمسحوبات السنوية من الإبل لاتزيد عن ٦٪ في حين

نوع الأنعام	١٩٧٥	١٩٨٠	٢٠٠٠
الأبقار	٢٠	٢١	٢٧
الأغنام والماعز	٢٧	٢٨	٣٣
الإبل	٠٤	٠٤,٣	٠٦

المصدر:- المنظمة العربية للتنمية الزراعية الخرطوم ١٩٩٠م

●جدول (٤) :النسبة المئوية للمسحوبات السنوية من أنواع الأنعام المختلفة في البلاد العربية خلال السنوات ١٩٧٥-١٩٨٠-٢٠٠٠م.

بلغت ٢٠-٢٧٪ و ٢٧-٣٣٪ من الأبقار والمجترات الصغيرة على التوالي، وتؤكد أن الإبل ثروة راكدة وغير متداولة إلا في حدود ضيقة.

يقود اكتناز الإبل وتكدسها المتزايد من عام لآخر في تلك البيئة الهامشية إلى مزيد من تآكل الموارد الطبيعية الشحيحة أصلاً، وتحقق نبؤءة بعض العلماء في أن الإبل هي أول المجترات الكبيرة في العصر الحديث التي ستتعرض للإضمحلال والفناء فيما يعرف بمأساة العامة (Tragedy of The Commons).

لقد لاحظ كثير من المهتمين عزوف وتدني إقبال المستهلك العربي على لحوم الإبل وتفضيل لحوم الأنعام الأخرى عليها بالرغم من أن أسعار لحومها هي الأقل في الأسواق. ويوضح جدول (٥) أن نسبة استهلاك لحوم الإبل في العالم العربي كانت أقل من ٥٪ من جملة اللحوم الحمراء المستهلكة المنتجة محليا، علما بأن العجز في إنتاج اللحوم الحمراء في العالم العربي في ازدياد، حيث قدر بحوالي ٣٣٠ ألف طن في عام ١٩٧٥م، ومليون طن في عام ٢٠٠٠م. وقد قوبل هذا العجز دائماً بالاستيراد من خارج الدول العربية لقلة الإقبال على لحوم الإبل لأسباب اجتماعية ترتبط بالعادات الاستهلاكية والطقوس القبلية والدينية السائدة في بعض المجتمعات العربية.

ظلت السياسات الاقتصادية الكلية المتبناة في كثير من البلاد العربية ولعقود طويلة تعيق تنمية وتطور قطاع الثروة الحيوانية بما فيها الإبل. ويرجع ذلك إلى أن سياسات تسعير المنتجات الحيوانية (اللحوم والألبان) غير منصفة، وتنحاز بشكل كبير للمستهلك على حساب المنتج استجابة لرغبات سكان المدن تحت ظل ضغطهم السياسي المؤثر، كما وأنها تحفز استيراد اللحوم الحمراء والألبان المجففة

● الرعاية الصحية للإبل أحد الركائز لتطوير الثروة الحيوانية .

وتغرق الأسواق باللحوم البيضاء (الدواجن) المجمدة بدلا من تشجيع ومساندة كبار وصغار المنتجين والقطاع الخاص والوطني، والتعاون للاستثمار في قطاعات الثروة الحيوانية بما فيها الإبل.

كذلك يعطى توزيع الموارد المالية المتناقصة من عام لآخر على قطاعات الدولة المختلفة في معظم الدول العربية الأولوية القصوى للخدمات الحضرية (التعليم - الصحة - الكهرباء - المياه - الأمن)، إذ تستهلك هذه الخدمات ٨٠٪ أو أكثر من الميزانية السنوية للدول العربية غير النفطية، وتأتي الموارد المخصصة للصرف على مشاريع التنمية مما يعرف بوفرات الميزانية والعون الأجنبي والديون - إن تيسرت - وتأتي تنمية وحماية الموارد الطبيعية والثروة الحيوانية بما فيها الإبل في ذيل قائمة أولويات التنمية في تلك البلدان.

المعوقات المعرفية

تعد ضحالة المعرفة ومحدودية المعلومات المرتبطة بالإنتاج والإنتاجية في الإبل أحد أهم العوامل المؤدية إلى تقاعس وإحباط الراغبين في الإطلاع على مهام تنمية وتطوير الإبل أو الاستثمار فيها، كما تعد المعرفة والمعلومات الأساسية والتطبيقية ذات الصلة الوثيقة بالقدرات الإنتاجية للإبل في ظل النظام التقليدي السائد الآن أو النظم المكثفة (شبه المكثفة) المتطلع إليها في المستقبل متواضعة. ويرجع ذلك إلى عدم توفر المعلومات الكمية والنوعية عن المقننات الغذائية، وكفاءة تحويل الأعلاف بأنواعها المختلفة إلى سلع، وكفاءة التناسل والنمو والميزات والخصائص الوراثية لأجناس الإبل المختلفة، وإن توفرت فهي معلومات تقديرية استخلصت بوسائل غير تجريبية لا يأخذ بها كثير من العلماء والمستشارين والمستثمرين.

يتسم نظام تربية الإبل في البلاد العربية بالتقليدية وعدم المواكبة، حيث لا يستخدم من مدخلات وتقنيات التربية والرعاية والإنتاج والتسويق إلا ما لا يذكر، ولا زال النظام يتوارث نفس المدخلات والمعدات والتقنيات التي استخدمها الأسلاف منذ مئات السنين. فعلى سبيل المثال:-

١- لازالت حيازات البدو من الإبل في معظم البلاد العربية تعتمد في غذائها على ما تجود به المراعي الطبيعية على مدار العام بلا تدخل منهم حتى في المواسم الحرجة، ولا يقدمون لها من الأعلاف التكميلية إلا ما قد يسد الرمق.

٢- لازال الكي بالنار والتداوي بالأعشاب التقنيات السائدة لعلاج كثير من أمراض الإبل.

نوع الأنعام	١٩٧٥		١٩٨٠		٢٠٠٠	
	الكمية	٪	الكمية	٪	الكمية	٪
الأبقار	٩٣٨,٧٦	٥٧,٩	١١٠٥,٧١	٥٧,٥	١٩٢٨,٠٤	٥٩,٧
الأغنام والماعز	٦٠٩,١٥	٣٧,٦	٧٢٨,١٦	٣٧,٨	١١٧٤,٥٤	٣٦,٥
الإبل	٧٢,٩١	٤,٥	٩٠,٢٩	٤,٧	١٥٦,٤٢	٤,٨
جملة الاستهلاك	١٦٢٠,٨٢	١٠٠	١٩٢٤,١٦	١٠٠	٣٢٥٨,٨٨	١٠٠

المصدر:- المنظمة العربية للتنمية الزراعية الخرطوم ١٩٩٠م - الجزء الخامس عشر.

●جدول (٥) :اجمالي استهلاك اللحوم الحمراء المنتجة (الف طن) في العالم العربي ومستوى مشاركة الأنعام المختلفة (٪ من اجمالي الاستهلاك) خلال الأعوام ١٩٧٥-١٩٨٠-٢٠٠٠م.

● اللبن ومنتجاته من أهم مصادر إنتاج الإبل .

٣- يلاحظ غياب التقنيات الحديثة اللازمة لتصنيع الحليب الفائض عن حاجة الحيازة وتحويله إلى منتجات أكثر مقاومة للفساد والتلف (جبن ـ سمن مثلا) من الحليب الطازج.

غياب التقنية

أصبح الآن معلوما بالضرورة أن البحث العلمي هو وقود التنمية والتطور، وظهر فرع جديد في البحوث ـ يعرف بالبحث من أجل التنمية (Research for Development) ـ يهدف لتجاوز مشكلة محددة أو عائق يواجه التنمية يقوم به فريق متعدد التخصصات.

لقد ظلت البلاد العربية ولعقود طويلة مستهلكة ومستوردة للمعرفة والتقانة والمدخلات لبرامج مختلف القطاعات من خارج حدودها. ولا بأس في بعض من ذلك، غير أنه لابد من التذكير أن الإبل لا تتواجد خارج حدود هذه البلاد إلا بأعداد قليلة، وعليه فلا توجد معلومات أو مدخلات أو تقنيات مميزة لاستيرادها من الخارج للاستفادة منها في برامج تنمية الإبل. ويضع هذا الواقع مسؤولية تنمية الإبل على عاتق مؤسسات البحث العلمي والتقني العربية، وهي بلا شك تمثل تحدياً كبيراً لها، وأن مخرجاتها سوف تعد مساهمة مقدرة من الدول العربية ـ فرادى أو مجتمعة ـ في إثراء البحث العلمي للإنسانية جمعاء.

تقع مهام بحوث الإبل في معظم الدول العربية في الوقت الراهن تحت إدارة بحوث الثروة الحيوانية التابعة لوزارات الزراعة والثروة الحيوانية، ولاتوجد مراكز متخصصة لبحوث الإبل على المستوى القومي أو القطري إلا في عدد قليل منها. إن إدارة بحوث الثروة الحيوانية مهتمة بحكم أولوياتها في برامج كبيرة ومتعددة، لعل اهمها مسح الأمراض وإنتاج بعض الأمصال لمكافحة الأمراض المختلفة في الفصائل الحيوانية مزرعية أو غير مزرعية، ولاتسعفها الموارد المحلية والكوادر البشرية المتاحة القيام بأي نوع من أنواع بحوث الإبل، والتي تأتي في موقع متأخر من قائمة أولوياتها.

إضافة لذلك فإن مراكز بحوث الإبل المتخصصة في البلاد العربية على قلتها لم تنشأ إلا حديثا، ومازالت في طور التأسيس والتمكين، وتصارع بقوة من أجل استكمال بنياتها الأساسية المادية والبشرية المؤهلة، ولم تتمكن حتى الآن من بلورة استراتيجية بحث علمي لتزاول نشاطها على أساسها.

ولتحقيق قدر من النجاح والأثر يجب أن تنحى هذه الاستراتيجية منحى البحث التنموي، فتشخص المشاكل والمعوقات التي تعترض تنمية الإبل وتستكشف مداخل تنميتها، وتبتكر الحلول والحزم التقنية المناسبة اقتصاديا واجتماعيا لتجاوز تلك المعوقات. وتقوم بتجربتها على أرض الواقع (Pilloting) قبل نقلها (Transfer) للمستفيدين (Targets). ويتطلب التنفيذ الناجح لهذه الاستراتيجية بالإضافة إلى مركز البحوث عالي الكفاءة جهاز إرشادي قادر على الحركة وتبسيط المعلومات ، ويستدعي أيضا تشجيع قيام جمعيات للحيازات والمستثمرين لتعمل كحلقة وصل بين المنتجين من جهة ومراكز البحوث والإرشاد من جهة أخرى.

المراجع

– المنظمة العربية للتنمية الزراعية ـ جامعة الدولة العربية ١٩٩٩م ـ البيانات الإحصائية الجزء الخامس عشر ـ الخرطوم ـ السودان.

– المنظمة العربية للتنمية الزراعية (١٩٧٩م) مستقبل اقتصاد الغذاء في الدول العربية ـ الخرطوم ـ السودان.

– **محمد السيد عبدالسلام** (١٩٩٨م) الأمن الغذائي للوطن العربي. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت.

– وزارة الزراعة والمياه بالمملكة العربية السعودية ـ إدارة الدراسات الاقتصادية والإحصاء، الموازنات الغذائية للمملكة العربية السعودية للفترات (١٩٧٤–١٩٧٦م) إلى (١٩٨٣–١٩٨٦م) العدد الثاني.

- **Abu Sin, M.E.** (1988). Transformation process of Camel Breeding in the Sudan in: **M.A Mohammed Salih and B.E Musa** (eds), Camel productions as a food system. Camel forum, working paper No.26. Mogadisho and Uppsala: So MAK/ SIAS.

- **Asad, T.** (1964). The Kababish Arabs. London: C.Hurst.

- FAO. Food and Agriculure Organization of the United Nations (1988) Year book. Rome, Italy.

- **Gaulthier- Pitters**, It. and **Dag, A.l** (1991). The Camel. It's evolution, Ecology, Behavior and relationship to man. University of Chicago press.

- **Mohammed, T.A.** and **Ahmed, M.A.** (1991) Camel Pastoralism as a food system in the Sudan: Limitations and changes. Nomadic peoples, 29: 61-67.

- **Salih, M.A. Mohammed** (ed). (1987). Agrarian change in the Central Rain Lands; sudan: A Socio-economic Analysis. Uppsala: Scandinavian Institute of African Studies.